

الفصل الثالث:

المسيحية من وجهة نظر اسلامية

إذا سمع مسلم اسم النبي محمد أو قرأه، في أي نص كما في هذا الكتاب مثلاً، فإنه يدعو للنبي مصلياً عليه^(١) (عليه الصلاة والسلام)، كذلك يصلي المسلم على عيسى إن تلفظ باسمه أو سمعه.

قد يبدو هذا غريباً مفاجئاً للقراء، الذين ليسوا على علم كافٍ بطبيعة الإسلام وفهمه لذاته، ذلك أن الإسلام لا يُعدّ نفسه ديناً جديداً في مقابل المسيحية لمجرد أنه، تاريخياً، جاء بعدها، بل إنه يرى نفسه إكمالاً وتصحيحاً للدين الداعي إلى الوحدة المطلقة، التي وصّى بها إبراهيم ومن بعده من الأنبياء، كما نصّت على ذلك آيات كثيرة بيّنة، منها الآية ١٣ من سورة الشورى ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا، وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...﴾.

من هذه الزاوية يمكن النظر إلى الإسلام بصفته أقدم الديانات الداعية إلى التوحيد، وإن كان في الوقت ذاته أحدثها تاريخياً. إنه، إذا غضضنا الطرف عن أخلاقياته ومبادئه الكريمة التي تدعو للتسامح، لا يزعم لنفسه الأحقية المطلقة التي تشجب غيرها من الأديان، كما تفعل الكاثوليكية بموقفها من الديانات الأخرى^(٢). بل إن الأمر أبعد من هذا، فالإسلام يني صرّحه على أسس الديانتين السماويتين اللتين سبقته، مشيداً بأنبياء الله^(٣)، معترفاً ومؤكداً لجوهرهما الذي لم ينسخ بالوحي^(٤)، إن الإسلام، حسب وصف (باول شفارتزناو) له - «رسالة

الوحي إلى الناس كافة في المعمورة كلها»^(٥). ولتدبر معاً الآية (٨٤) من سورة آل عمران ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ، وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نَفَرَّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ صدق الله العظيم.

ليست صلاحية الإسلام ومشروعيته إذن ناتجة عن رفضه لليهودية والمسيحية، وإنما من المقارنة الموضوعية بين الأديان الثلاثة^(٦)، والواقع أن تلك الديانات الثلاث تربطها وشائج القربى، بحيث ترى الفروق التي تفصل فيما بينها أقل بكثير من التي تفصلها عن البوذية والهندوسية مثلاً^(٧).

بذا ننضمهم موقف الإسلام في اعتباره عيسى (عليه السلام) نبياً من أنبياء الإسلام، فقد أسلم لله كما يدل على ذلك المعنى الحرفي اللغوي للفظ «مسلم»، بيد أنه ليس بحالٍ من الأحوال خاتم النبيين^(٨).

وَمُنْطَلَقُ عِلْمِ الْأَصُولِ أَوِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ أَنَّ مُحَمَّدًا (ﷺ) لَمْ يَرِدْ ذِكْرُهُ فِي التَّوْرَةِ فَحَسَبَ وَإِنَّمَا فِي الْإِنْجِيلِ كَذَلِكَ، أَيْ فِي الْعَهْدَيْنِ الْقَدِيمِ وَالْجَدِيدِ، وَقَدْ بَشَّرَ عِيسَى نَفْسَهُ بِمَقْدَمِ الرُّسُولِ الَّذِي تَعْنِي تَرْجُمَةُ اسْمِهِ «أَحْمَد» مُشْتَقًّا مِنَ الْحَمْدِ (سورة الأحزاب، الآية ٤٠)، و (الصف، الآية ٦)، وقد نص في ذلك نصاً على أنه آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ وَخَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ^(٩).

يستقي الكثيرون معرفتهم عن منزلة عيسى ومريم وصورتيهما في الإسلام من القرآن، خاصة من سورة آل عمران (السورة الثالثة)، وسورة مريم (السورة التاسعة عشرة)^(١٠)، ولا يعرف الكثيرون صورتيهما ومنزلتهما في الأثر والمسة، حيث يهتم القرآن بالعبارة المستهدفة من إرسالهما، ومن ثَمَّ كان إخباره عنهما بشكل أقل من النمط القصصي في السرد، مثلاً الآيات ١٦ - ٢٠ من سورة مريم ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ... وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾، وسورة عمران، الآيات ٤٧ - ٤٩ ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. هذه الآيات البيئات تجعل المسلم يتيقن أن الله سبحانه خلق عيسى خلقاً، لا بالتناسل المألوف، سبحانه: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ (سورة

الجن، الآية ٣)، ﴿لَمْ يَلِدْ، وَلَمْ يُولَدْ﴾ (الإخلاص، الآية الثالثة)، فولدته أمه العذراء مريم، مؤيداً بروح القدس وبالمعجزات، كما في سورة المائدة الآية ١١٠ ﴿... إِذْ أَيْدَتِكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ... سَحَرِ مِيقَانَ﴾ ويتيقن المسلم أيضاً أن عيسى نشأ في بيئة يهودية، عبداً صالحاً مباركاً نبياً، وأنه ليس ابناً لله حاشا لله، وأنه ليس ذا طبيعة إلهية أو جوهر مشابه لله، أو تجسيدا للناسوت والألوهية في شخص واحد، كما يزعمون ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾، سبحانه هو الغني، له ما في السماوات وما في الأرض. إن عندكم من سلطان بهذا؟! أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ (يونس، الآية ٦٨).

﴿قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ (سورة مريم، الآيتان ٨٨، ٨٩).

أما التلث فيرفضه القرآن رفضاً قاطعاً: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ... مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ، كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ. انْظُرْ كَيْفَ نَبِّئْ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (المائدة، الآيات ٧٢ - ٧٥)، والآيات نفسها تؤكد بشرية مريم، وترفض تقديسها إلى درجة التأليه ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ... فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة، الآيات ١١٥ - ١١٨).

هذا الإغراق والإفراط في تقديس مريم (لدرجة جعلها تُقَرَّبُ إلى السماء معراجاً^(١)) الذي يحلو للبعض أن يضيفه عليها، يثيراً منه الإسلام، فما كانت وابنها سوى عبيدين صالحين تقيين، كعباد الله الصالحين، لا أكثر، ولا أقل من هذا، أو كما يقول الحق سبحانه:

﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابَتَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء، الآية ٩١) و ﴿صَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ وَكَانَتْ مِنَ الْقَائِمِينَ﴾ (التحریم، الآية ١٢)، و ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً، انْتَهَوْا خَيْرًا لَكُمْ، إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ﴾ (النساء، الآية ١٧١). إن القرآن يثبت رفع عيسى إلى السماء (النساء، الآية ١٥٨)، لكن ليس كما ترد في الأناجيل بعد موته المزعوم على الصليب: ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن

مريم رسول الله، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم... بل رفعه الله إليه، وكان الله عزيزاً حكيماً» (النساء، الآيتان ١٥٧ - ١٥٨).

الآن، وفي أيامنا هذه، نتساءل: كيف ينظر الإنسان المعاصر إلى إنكار الطبيعة الإلهية للمسيح والروح القدس، باعتبار الآب، والابن، والروح القدس إلهاً واحداً كما يزعم القائلون بالتثليث؟! أما أنا شخصياً، فأرى أن نظرة الإسلام التي تنكر الطبيعة الإلهية لعيسى، تلقى مؤيدين يزداد عددهم باستمرار من بين المسيحيين أنفسهم.

لقلماً يلتفت المسيحي اليوم هنا إلى وجود فعال للروح القدس. ويتضح في عصرنا بشكل جليّ يوماً عن يوم، أن الذات الإلهية «تصور عقلي» يدين الإنسان الغربي في تحيّل له للتصورات التي سادت وشاعت قبل المسيحية مختلطة بالأفلاطونية، واللاأدرية، وكذلك الأفلاطونية الجديدة في وقت لاحق، حيث فرضت نفسها بإسهامها مع الأفلاطونية واللاأدرية في خلق الصورة «للذات الإلهية». ولم تحظْ آلهة الفراعنة أو «الثالوث الفرعوني» إيزيس وأوزيريس والابن حورس بالنصيب الوافر الذي حظي به إله أفلاطون «ديمورج»، الذي خلّق العالم الماديّ في معتقده، و «اللوجوس» أو العقل الأول، أو النصيب الذي حظي به ثالوث آخر: الوجود المادي والعقل والروح لدى أفلوطين ولدى بروكلوس. إنّ مؤلف إنجيل يوحنا الموجود بين أيدينا، كائناً من كان، إنما يُخلّق في هذه الأجواء التأملية متفصلاً هواءها «السامي»، فتراه يقول: «في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله. هذا كان في البدء عند الله».

لقد مكّنت الترجمة الشارحة لبعض نصوص العهد الجديد لاستقرار الإطار الفلسفي «للشخص» الإلهي ثالث الثلاثية، فقد اكتفى القوم باديء ذي بدء بتحويل المُعزّي إلى «روح»، ثم حوَّروا هذا الروح فأصبح «الروح القدس»، كما نعرف من إنجيل يوحنا (وأنا أطلب من الآب فيعطيكُم مُعزّياً آخر، ليمكثَ معكم إلى الأبد. روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه. وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكثٌ معكم ويكون فيكم. لا أترككم يتامى. إني آتٍ إليكم...) (١٢).

بيد أنَّ العهد الجديد قد دأب على وصف اللوحوس (العقل الأول) أو الروح بأنه ليس شخصاً مادياً، فوصفه مثلاً بأنه «روح من الله» كما تنص رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس: إصحاح ٢: ١٠ - ١٢ (فأعلنه الله لنا نحن بروحه. لأن الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله. لأن من الناس من يعرف أمور الإنسان إلا روح الإنسان الذي فيه... ونحن لم نأخذ روح العالم بل الروح الذي من الله...)، ووصفه أيضاً بأنه عطية أو هبة، كما في إنجيل لوقا: إصحاح ١١: ١٣ (... الآب الذي من السماء يعطي الروح القدس للذي يسأله). وعلى كل حال، فإن عيسى (عليه السلام) لم يذكر إطلاقاً أي شيء عن التثليث الذي هو أصل من الأصول الراسخة لدى أكثر مسيحيي العصور المتأخرة، بعد القرون الأولى الميلادية، لأن عيسى فيما يبدو قد صَدَّر في تصوره للذات الإلهية عن التصور اليهودي لها، شأنه شأن كافة اليهود في عصره، والحواريين الذين اتبعوه من اليهود^(١٣).

والمعروف أن المجمع المسكوني المنعقد في نيقية (بأسيا الصغرى) عام ٣٢٥ م لم يلتزم أو يحترم التصور اليهودي لله، وهو تصور عيسى والمسيحيين الأوائل لله أيضاً، فأصدر ذلك المجمع قراراً، ليس له طبيعة الإعلان وإنما طبيعة الدستور الملزم، وذلك بشأن مسألة التثليث، فبعثها وتبناها بصفتها عقيدة أساسية، أما كافة الآثار والمخطوطات التي عارضت عقيدة التثليث هذه، فقد تم التخلص منها أو قُلْ إعدامها.

كذلك، فإن من المهم أيضاً (أو المؤسف حقاً) أنَّ أقدم نسخ العهد الجديد جميعها، والتي يتداول القوم ترجماتها إلى لغاتهم، قد أتمَّ إعدادها بعد ذلك المجمع المذكور. ليس معنى هذا بالضرورة أن يُوصَم تاريخ المسيحية بأنه تاريخ إجرامي، كما يذهب إلى ذلك المؤلف الألماني كارل هاينز دشنر، لكن مقولته (فرضية العلمية) التي تؤكد أن المسيحية مزورة، تتفق مع ما يؤكد الإسلام من تحريف الإنجيل، ومخالفة المسيحية للنصرانية التي بشر بها عيسى^(١٤).

ينسحب هذا أيضاً على حقيقة وجود عيسى تاريخياً، وعلى دوره بوصفه يسوع المخلص، كما يقول القوم.

واليوم لا يزال علماء الدين البروتستانت وبعض الكاثوليك يتوافر الموثوقية أو عديمها للمصادر التاريخية بشأن وجود عيسى تاريخياً، بل يصمتون صمتاً تاماً متقبّلين شتى التناقضات الواضحة، والمغالطات التاريخية الفاضحة، التي ترد كثيراً في الأناجيل الأربعة، وترى القوم بعد هذا وذاك ساكتين مُقَرِّرين للبدع الغريبة على النصرانية، والتي أخذتها في وقت متأخر من الشعوب الكافرة أصلاً، فأصبحت اليوم في الحياة العملية جزءاً من المسيحية.

الحق أن البراهين القاطعة التي تثبت محاكمة عيسى غير متوافرة، فالبحث العلمي الممخص اليوم يشك شكاً قائماً على الدرس والمقارنة، في أن ثمة محاكمة جرت ليُحكَم عليه إطلاقاً.

على أية حال، فإن الشاهد الذي يمكن الركون إليه في مسألة موت المسيح ضئيل لا يسمن في هذا الموضوع. ولا يغني من جوع، لا سيما أن دفعه، فرضاً أنه قبر، وقيامته، فرضاً أنه نُشِر، لم يرد في الأثر، وما رآه أحد من البشر، رأي العين^(١٥).

هذا الوضع يفسر لنا هذا الرواج العيسوي في الأدب الحديث اليوم، حيث تملأ عناوين المؤلفات وحدها، التي تناولت عيسى في السنوات الثلاثين الأخيرة أكثر من خمسمائة صفحة.

أما مسألة تجسد الله في عيسى أو حلول الذات الإلهية فيه، فهي مبتورة تعوزها الموثوقية أكثر مما سبقها من المسائل الأخرى، ولن يجد القارئ الموضوعي البسيط، في أية ترجمة صحيحة للعهد الجديد، أية جملة أو كلمة قالها عيسى يستنتج منها ذلك الافتتاح المنسوب إليه ظلماً وعدواناً، إن عيسى ليس الله، وكل منهما منفرد في الإنجيل بمكانته: الله الرب وعيسى العبد لا أكثر ولا أقل. إن القارئ للإنجيل هذا، سيقع على العكس، ليس فقط في نصوص الجُلُجَّة أو الجُمُجمة. ولكن بوجه عام، حتى في إنجيل يوحنا نفسه يقول عيسى: «... اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم إنني أصعد إلى أبي وأبيكم والهي والهكم» (الإصحاح ٢٠: ١٧) ..

قصارى ما يقع عليه قارىء الإنجيل ألفاظاً مثل الآب والابن، وليس ذلك بشيء، لأن هذه الألفاظ لا تعني أبوة أو بُنوة إلا على المجاز المتعارف عليه في جميع الديانات، كناية عن الصلة بين العبد المخلوق والذي خلقه. قبل هذه الخلفية أريد أن أذكر أُرْبَعَةَ تياراتٍ مسيحية داخل الكنيسة، مع التمييز بينها:

أولاً — هناك طائفةٌ كبيرة من المؤمنين المسيحيين في القرى خاصةً يدينون بالوحدانية المسيحية التي تجعل من الله والمسيح ذاتاً واحدةً، وإن تفاوتت هذه النظرة قليلاً أو كثيراً... هذه النظرة التجسيمية التشبيهية، التي تخلع على الله الصفات البشرية، مثلاً عيسى رضيعاً في مهده أو بتعبير أدق في «المذود أو مغلّف البهائم، أقرب إلى طبيعة السُدج وشعورهم بالحاجة إلى ربٍّ مشابه لهم، غير مختلف جد الاختلاف عن تصورهم (وذلك هو الإله الذي أصدر عليه الفيلسوف نيتشه حكماً بالإعدام، في قولته الماثورة عنه).

ثانياً — في معتقد البروتستانت بوجه خاص، وحتى في داخل النظام الإكليريكي بمراتبه، أخذت النظرة إلى اعتبار المسيح إلهاً تضحّل، بل صار المسيح فيها واضعاً للمعايير الخلقية الحميدة، وأعلى مثل حسن يُحتذى في حب الآخرين وإيثارهم، رؤوفاً عطوفاً، يحسن الاقتداء به، سواء كان وجوده التاريخي حقيقة أو وهماً، فقد ثبتت وتأكّدت القيمة التي لا تنكر للتعاليم المسيحية الإنسانية، على مر العصور.

بهذا التصور انحدرت البروتستانتية بعيسى إلى مزلق خطير، حيث هبطت به إلى الإطار الوظيفي اللائق بالنموذج الأصلي للمشغلين في مجال الخدمة الاجتماعية، مما يقلّص حجمه داخل «علم لاهوت» التعاسة والبؤس.

ثالثاً — الاتجاه المضاد أو المقابل للاتجاهين السابقين تمثله النزعة الدينية القائمة على الجانب الأسطوري لشخص عيسى، والتي تجنح بشغف إلى التصوف والغيبيات هرباً من صعوبة التأويلات التي تصطدم بها.

على أية حال، هذا هو الانطباع الذي خرجت به من قراءاتي، مثلاً لكتاب ريديجر أتمان (سرّ الليل)، والذي يذكر فيه مخطئاً بالطبع عن إلهٍ وُلد ليلاً،

والذي يشهد فيه باعتقاده وإيمانه بمعرفته لله حسب الفلسفة الغنوصية المسيحية^(١٦).

إن هذا الصنف من المؤمنين، تكفيه المصادر المتوافرة، طالما حفلت بالأساطير المتعلقة بالذات الإلهية، والأم الكبرى (مريم)، والنور الأزلي، والخطيئة الأولى، ويسوع المخلص، وغير ذلك من الشعارات أو اللافتات التي تستر وراءها. تلك هي الفئة الباغية، التي لا تتورع عن الزعم بالطبيعة الإنسانية لله أو حلول الله في جسد إنسان، دون أن تخشى اتهامها بالزندقة حين تصرح بأنه، الله سبحانه «أصبح بميلاده الجديد إذ حلَّ في جسد إنسانٍ، إلهاً آخر»^(١٧).

رابعاً — الاتجاه الذي يمثله الأستاذ هانز كينج وهو اتجاه يعالج بشجاعة ودون الاستسلام للأوهام في دراسته، النصوص العتيقة، عالماً أن موثوقية تلك النصوص موضع التساؤل، لكنه لا يفرع إلى العقلانية المغرقة في اللاأدرية، ولا إلى المادية اليومية المسطحة. هذا الاتجاه أميلُ إلى التغلب على مستعصيات المشكلات الوجودية، محاولاً تقويم اعوجاجها بواسطة تعريفات جديدة مستحدثة، مثال ذلك رؤية عيسى بصفته مفوضاً مختاراً من قِبَلِ الله، ورؤية التثليث على أنه وحي الله إلى عيسى بواسطة الروح القدس^(١٨)، ونُتَبَّه إلى أن كلمة «القدس» هنا ليست صفةً في اللغة الألمانية، وإنما هي مُتَمَمَّةٌ لكلمة الروح، لذا لا بد من كتابتها بالحرف الكبير لا بالصغير المميز للصفات؛ فالروح القدس اسم علم واحد^(١٩).

بهذا تَحَمَّلَ هانز كينج التبعة المترتبة على هذه المعرفة «أي بُعْدُ الشُّقَّةِ بين الأقوال الأولى في الاناجيل عن الأب والابن والروح، وبين مُعْتَقَدِ التثليث الذي تبنته ورُوِّجت له الكنيسة (بعد مجمع نيقية المسكوني عام ٣٢٥ م)، كذلك هذا التباين «والتناقض في التصورات التي تسوقها الأناجيل»، كما أن هانز كينج يعترف أنه من العسير القولُ إنَّ في الأناجيل أيَّ جملة تَمَّتْ، ولو من بعيد، بصلية إلى مبدأ «التثليث» أو حتى ما يُشَبِّهُهُ^(٢٠).

(٥) مركب من جزئين مثل عبد الله، لا مثل حضرموت أو معد بكر، ونحو ذلك من الأسماء المركبة تركيباً مزجياً: (المترجم).

أما إذا أراد هذا الاتجاه الذي يمثله هانز كينج القول بأن عيسى ليس ابن الله وليس مثابهاً له في الطبيعة أو الألوهية أو الربوبية، وأن الروح القدس ليس ذا طبيعة إلهية، فإنه يُعَدُّ اتجاهًا إسلامياً، ومن ثم يُؤيد ما يذهب إليه المسلمون حين يقولون إنهم هم أولى الناس بعيسى، أو هم المسيحيون الذين لم يخرجوا على شريعة المسيح قط، على عكس سواهم، بل يُؤيد هذا بالفعل أن الإسلام أقدم من المسيحية التي نراها اليوم، ولا بد من التنويه أن هانز كينج وغيره قد أصابوا كِبَدَ الحقيقة في قولهم إن مسيحية اليهود الذين تنصروا قد حفظها القرآن بين ثناياه.

الواقع أن هذه النظرة الجديدة، والقديمة في الوقت ذاته، إلى طبيعة عيسى والدور الذي كتب عليه أدائه، نظرة ذات أهمية خطيرة، ذلك أن النبوة شيء خطير الأهمية حقاً. على أن هذه النظرة الجديدة إلى طبيعة عيسى والدور الذي كتب عليه أدائه بصفته نبياً مرسلًا، حُجَّةٌ تقوم على القائلين بها، فعليهم إذن أن يفسروا لنا لماذا ظلوا على مسيحيتهم شعوراً وممارسةً، ولم يدخلوا الإسلام، بعد ما تبين لهم أنه الحق^(٢٠).

وأظن ظناً أن شعورهم لا يزال معلقاً بنظرتهم إلى النجاة والخلاص، المستندَيْن إلى الخلفية المعروفة، الناطقة إلى الخطيئة الأولى وإلى آلام المسيح بالدرجة الأولى.

أما الإسلام، فإنه يرفض هذه النظرة للخطيئة الأولى، لأنها منطلقة من فشل ما خلق الله أي أن خَلَقَهُ (آدم وحواء) خَلَقَ سيء، فهذا افتراء على الله، مناقضٌ لمبدأ قرآني رئيس في الإسلام ﴿لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (الانعام، الآية ١٦٤)، بل إن الفرد ليس مسؤولاً عن وزر الجماعة أو القبيلة المنتمي إليها، هذه التصورات تناقض ما يعرفه الإسلام عن ذات الله الرحمن الرؤوف الرحيم، الحكم العدل^(٢١).

إن الإسلام يرفض رفضاً قاطعاً الحاجة الماسة للمُخَلَّص أو الخلاص، بل إن الإسلام يُنْذِرُ الزعم الديني بأن المسيح كان الحَمَل الذي ضَحَّى نَفْسَهُ لخلاص العالم تجديدًا وسبًا وزندقةً، خاصةً هذه الصيغة التي يُرَدِّدُها القوم في صلاتهم

وَيُؤْمِنُونَ بِهَا «بِمَوْتِهِ عَلَى الصَّلِيبِ، حَيْثُ تَجَمَّعَتْ كُلُّ أَلَامِ الْبَشَرِ، تَحْمَلُ اللَّهُ، لِأَجْلِ نَجَاتِهِمْ، أَلَامَهُمْ»، إِنْ مِثْلَ هَذَا السَّخَفِ الدِّينِيِّ يَنْسِبُ إِلَى اللَّهِ أَنَّهُ لَيْسَ بِقَادِرٍ عَلَى إِنْقَاذِ خَلْقِهِ وَتَخْلِيصِهِمْ دُونَ أَنْ يَخْلُقَ إِلَهُاً لِيُفْتَدِيَهُمْ وَيَتَحَمَّلَ عَنْهُمْ الْأَلَامَ... وَهَذَا التَّصَوُّرُ كَسَابِقُهُ يَعَارِضُ تَصَوُّرَ الْإِسْلَامِ لِلذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ، حَيْثُ يُصَوِّرُ الْقَوْمُ اللَّهَ ضَحِيَّةً عِبَادِهِ الثَّائِرِينَ ضِدَّهُ، وَالَّذِينَ قَالُوا إِنَّهُمْ قَتَلُوهُ وَصَلَبُوهُ.

من هذه الزاوية نرى مع (باول شفارتزناو) أيضاً أن رفض فكرة موت المسيح على الصليب على الإطلاق جزء من الاحتجاج على تسليم المسيحيين بقصة الصلب تسليماً لا يشكّون فيه^(٢٣).

إن الإسلام يرى أن اليهود ما صَلَّبُوا المسيح وما قتلوه، إنما شُبَّهَ لهم ذلك، لأن الله رفعه إليه: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَرْفُوعٌ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ (آل عمران، الآية ٥٥).

أما عن كيفية رفع الله المسيح إليه، فليست معلومةً على الوجه الصحيح، وكل ما يقال في هذا الأمر تخربات أو تخمينات^(٢٤)، إذ لا يعلم ذلك أحد يقيناً، سوى الله، سبحانه ﴿... وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شكٍّ منه، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن، وما قتلوه يقيناً، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ (النساء، الآيتان ١٥٧ - ١٥٨)^(٢٥).

لهذا ينبغي على المرء تقييم الأسطورة التي تزعم أن عيسى عُمرٌ طويلاً، ومات في كشمير، وبها قُبِرَ، بما هي أهلٌ له من التقييم بوصفها أسطورة^(٢٦).

تلك إذن هي الخلفية التي تكتنف السؤال الملح اليوم: ما القُرْصُ الحقيقية المتاحّة للحوار المسيحي الإسلامي اليوم، والذي لا مناص منه للحفاظ على السلام العالمي؟^(٢٧).

في ٢٢ نوفمبر ١٩٨٨ ألقى عالم اللاهوت الألماني هانز كينج محاضرة في العاصمة الجزائرية، حول هذا الموضوع، بعنوان (لا سلام في العالم، بدون الوثام بين الأديان) فالسلام العالمي، رهقٌ بالسلام الديني، ولم تُكُنْ لدى المحاضر معرفةً آنذاك بما سيقع بعد عامين (عام ١٩٩٠ م) في منطقة الخليج العربي، ولقد

كان يرجو أو قل يتمنى أن تتفق الأطراف المعنية على التزام الأمم بميثاق أخلاقي قائم على التقارب الديني وتفهم كل طرف للطرف الآخر، لا أن يرتضي الجميع أو يتخذوا ديناً موحداً يدينون به ولا أن يضلوا في المتاهات الفوضوية، التي تحاول التوفيق بين الأديان المتعارضة.

الحق أن الجانب المسيحي بذل جهداً مشهوداً محموداً في سبيل هذا الحوار بين الأديان من أجل إحلال السلام والحفاظ عليه^(٢٨)، وذلك على الصعيد العالمي تقريباً: يدخل في ذلك مثلاً المؤتمرات والندوات في مجال العلاقات بين الأديان في قرطبة، والمؤلفات والمنشورات الجادة القيمة لعدد من الرهبان مثل ميشيل ليلونج^(٢٩)، والرسائل السنوية التي يبعث بها البابا إلى المسلمين مهتماً بعيد الفطر، راجياً لهم وللعالم الخير والحياة في أمن وسلام، ودعوته لممثلي الأديان على اختلافهم لأداء صلاة جماعية يوم ٢٧ أكتوبر ١٩٨٦ في مدينة أريزي بإيطاليا.

إن تفهم كل طرف للآخر يتطلب شرطاً أولياً مسبقاً، أن يحترم كلاهما الآخر ويتقبله حسب فهمه لذاته. هذا يعني للمسلم أن يتقبل المسيحيين كما هم، غير واصلهم بأنهم مشركون كفرّة، حتى وإن كانوا، من وجهة النظر الإسلامية، يدينون بوحدانية متميعة.

وعلى الجانب المسيحي أن يكفّ عن الزعم قولاً وعملاً بأن لا نجاة أو خلاص خارج الكنيسة، وذلك كما يزعم الفاتيكان الثاني (أعلى سلطة للكنيسة الرومية الكاثوليكية)... هنا نخشى ألا يمثل القوم طالما أن الكنيسة الكاثوليكية متمسكة بمبدأ رئيس لديها (لا نبيّ إلا الأنبياء الذين تعترف الكنيسة بنبوتهم)، أي أنها قد ترتضي أن يكون الإسلام ديناً يهدي للخلاص، لكنها ترفض رفضاً تاماً أن تعترف بنبوة محمد، داعياً إلى الله على ذلك الصراط... الواقع أن الفاتيكان قد وقع في تناقض يدمغه المنطق، ويعوزه الصدق، ذلك إذ قرر أن المسلمين يجب معاملتهم بالاحترام الكامل، لكنه أغضى عن عميد، متجنباً عن الإشارة للقرآن والذي بلغ القرآن، وذلك بشكل مخجل مخز^(٣٠).

يتضح من حيثيات هذا القرار أن التقارب المنشود، على صعيد الأديان، محدودٌ بحدود، لأن كل دين منها يصطدم بنقاط جوهرية صلبة، لا تُطرح للمناقشة للحسم فيها، أو بمعنى آخر لا يتنازل أي طرف عنها أو يرضى المساومة عليها. وتلك النقاط الجوهرية التي ذكرها هانز كينج في محاضراته المشار إليها آنفاً، في قرطبة، هي:

• كونُ المسيح ابنَ الله لدى المسيحيين.

• كونُ القرآن وحيَ الله لدى المسلمين.

• كونُ اليهود شعبَ الله المختار لدى اليهود.

الواقع أن القياس يمكن أن يصور هذا التناقض على النحو التالي: محورُ المسيحية شخصٌ، ومحور الإسلام كتابٌ وكلمةُ الله تجسدت في المسيحية لحماً (عيسى)، وتجسدت في الإسلام كتاباً، هو القرآن^(٣١).

وحيث إن هذا صحيح، فإن إمكان المصالحة بين الأديان، أمرٌ واردٌ في الحسبان، وذلك إذا وافقت الهيئاتُ المسيحيةُ ذات الشأن على القول بطبيعة عيسى حسب مفهوم هانز كينج لها، وإذا اعترفت بأن القرآن كلمةُ الله، (أصدق القائلين).

ولا يُظنُّ أحدٌ أننا نعني أن الحوار المفتوح بين الأديان عديمُ الجدوى أو أنه صرخة في واد، إذا لَجَّتِ الأطراف المتحاورَة في العناد، دون تنازل أيٍّ منها عن موقفه بعض الشيء... بل على المرء ألا يُسيء تقدير آثار الخطوات الصغيرة وجدوى اللقاءات والمناقشات بين البشر، خاصة مع البسطاء غير المثقفين من الكادحين الأجانب في ألمانيا، بشرط عدم سوء النية، أو النوازع الخفية، التي تستهدف التبشير. ولا يخفى على أحد، أن المسلم الحق مستحيل أن يرتد، أو أن تفلح معه محاولات التنصير.

الملاحظات الهامشية للمؤلف:

- (١) صلى الله عليه وسلم.
- (٢) ارجع الى فصل «التسامح وسماحة النفس أم العنف».
- (٣) البقرة، الآية ٨٧، والأنعام، الآيات ٨٣ - ٨٧.
- (٤) الأحزاب، الآية ٧، المائدة، الآية ٤٦.
- (٥) بول شفارتزناو: علوم القرآن للمسيحيين، ط ٢، هامبورج ١٩٩٠.
- (٦) قارن: عمانويل كلرهانز: الإسلام، ط ٢ بازل ١٩٥٦، ص ٣٧٧ وما بعدها.
- (٧) هكذا يرى القس الكاثوليكي الأب جريجور بوكرومان في مقاله بتاريخ ٨٩/٩/٢٥، ص ١١، في جريدة فرانكفورت العامة (فرانكفورتر أجمانية).
- (٨) قارن كتاب «عيسى نبي من أنبياء الإسلام»، تأليف محمد عطاء الرحمن، ط ٣، لندن ١٩٨٣، أحمد عبد الوهاب: حوار ومجادلات بين المسيحية والإسلام، باريس ١٩٨٧، و: كنيث ج. روبرتسون: يسوع أم عيسى؟ مقارنة بين عيسى في الأنجيل وعيسى في القرآن، نيويورك ١٩٨٣، و: نيلو جياجيا: مريم في القرآن نقطة التقاء بين المسيحية والإسلام، نيويورك ١٩٨٤.
- (٩) يستند هذا إلى إنجيل يوحنا، إصحاح ١٤: ٢٦ و ١٦: ١٣ على افتراض أن الكلمة الموجودة تعني أحمد، لا الكلمة الأخرى التي تعني: المؤيد أو المعزّي، قارن: دافيد بنيمين: محمد في الإنجيل، ميونخ ١٩٨٧، صفحة ١٨٣ وما يليها، و: صاحب مستقيم بليهر: شهادة الإنجيل: شواهد من الإنجيل تشير إلى موثوقية القرآن، ط فايلزفست ١٩٨٤، ص ١٨، وكذلك بول شفارتزناو، مرجعه المذكور آنفاً.
- (١٠) قارن سورة البقرة، الآية ١١٦ وما يليها، والأنبياء، الآيات ٢٦ - ٣٠، وأحمد فون دنفر: الإسلام وعيسى، ميونخ ١٩٩١.
- (١١) في الممارسات الدينية اليومية لدى مسيحيي اليوم زحزحت مريم الروح القدس إلى ورائها، أما فيما يتعلق بإجلال صوفية المسلمين اليوم لمريم إجلالاً مفرطاً مبالغاً فيه، فارجع إلى (الترنمة المريمية الكونية) في كتاب: مريم في الإسلام لشارلز - أندريه جيليس، باريس ١٩٩٠.
- (١٢) يؤيد هذا مثلاً إنجيل يوحنا، إصحاح ١٤: ١٦ و ١٤: ٢٥، قارن أيضاً صاحب مستقيم بليهر في المرجع المذكور آنفاً، صفحة ١٨٠ وما بعدها.
- (١٣) قارن: أدولف شلاتر: تاريخ المسيحية الأولى، طبع جيتزلوه ١٨٩٢، وجون هيك وإدموندس ملترز (الناشر) ثلاثة أديان وإله واحد: مجابهة بين اليهودية والمسيحية والإسلام، ط لندن ١٩٨٦.
- (١٤) كارل هاينز دشر: العقيدة المحوّفة، ط ميونخ ١٩٨٨، كذلك كتابة: التاريخ الإجرامي للمسيحية، طبع هامبورج، المجلد الأول ١٩٨٦، والثاني ١٩٨٨.
- (١٥) قارن فيدج فريكه: «مصلوباً دون محاكمة طويلة، وفقاً للعرف السائد»، شخص عيسى الجليلي ومحاكمته، طبع فرانكفورت ١٩٨٦.
- (١٦) ريديجر ألمان: جريدة فرانكفورت العامة (أجمانية) - الملحق بتاريخ ١٩٨٥/١٢/٢١.

- (١٧) هانز فالدنفلس: جريدة فرانكفورت العامة (ألجمانية) بتاريخ ١١/٢٤/١٩٨٥.
- (١٨) هانز كينج ويوسف فان إس: المسيحية والديانات العالمية: مجلد ١، الإسلام، جيتزلوه ١٩٨٧.
- (١٩) هانز كينج: نحو حوار مقبل بين المسلمين والمسيحيين في دورية الجامعة، شتوتجارت ١٩٨٤، ص ١٣٥١.
- (٢٠) لماذا أنا مسيحي أبداً؟ باريس ١٩٨٥، عنوان الترجمة الألمانية: «بدا يمكن المرء أن يستمسك»، طبع كولونيا ١٩٨٥.
- (٢١) فيما يتعلق بالدور الوظيفي للخطبة الأولى على مدار تاريخ الكنيسة، قارن: إلين باجلز: «آدم وحواء والحبة»: اللاهوت القائم على الخطبة، ط راينك ١٩٩٠.
- (٢٢) هكذا كتب كارل - ألفريد أودين: جريدة فرانكفورت ألجمانية، المقال الافتتاحي بتاريخ ٤/٤/١٩٨٥، «بل إن فرنسا شهدت أكثر من هذا حيث نشأ «لاهوت معارضي الله المغلوبين البؤساء، المناصرين للمساكين والضعفاء»، قارن: جان ديومو، «هذا هو مُفْتَقِدِي»، باريس ١٩٨٥.
- (٢٣) باول شفاترتناو: المرجع المذكور آنفاً.
- (٢٤) قارن: التعليق الحكيم على الآية ١٥٧ من سورة النساء في ترجمة حمزة بويكر للقرآن، الطبعة الثالثة باريس ١٩٨٥، إلى جانب هذا كتاب ج. بارندر: عيسى في القرآن، ط أوكسفورد ١٩٧٧، حيث يحلل المعنى المقصود من لفظة قتلوه في الآية الكريمة ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح... وما قتلوه يقيناً﴾ (النساء، الآية ١٥٧): الواقع أن قتلوه جُفِلَتْ من فعلٍ وفاعلٍ ومفعولٍ به، فترى المؤلف ج. بارندر يركز ليس على عدم القتل نفسه (ما قتلوه) ولكن على ادعائهم هم أنهم قاموا بقتله (إنا قتلنا المسيح)، وهنا تكون المطابقة ممكنة بين المسيحية التي تقول إن اليهود قتلوا المسيح صلباً، وبين الإسلام الذي يؤكد، وفقاً للآية، أن اليهود فعلاً زعموا أو ادعوا أنهم قتلوه، فلا تعارض ظاهري بين الأمرين، وإن كان الواقع الحقيقي مختلفاً تماماً، أي أنهم على الحقيقة ما قتلوه وما صلبوه.
- (٢٥) قارن: محمد أسد: رسالة القرآن: جبل طارق ١٩٨٠، الحاشية رقم ١٧١ على الآية المذكورة ١٥٧ من سورة النساء، وكذلك محمد علي: القرآن العظيم، الطبعة الثامنة، ط برتنوود ١٩٨٥، الحاشية ٦٦٣ على الآية.
- (٢٦) أندرياس فاير قيصر: «عيسى عاش ومات في كشمير» طبع لوتسن ١٩٨٦.
- (٢٧) بالنسبة للحوار المسيحي الإسلامي، انظر: محمد سالم عبد الله: الإسلام، للتحدث مع المسيحيين، الطبعة الثالثة، ألنبرجه ١٩٩٠.
- (٢٨) قارن: في الحديث المشترك: الإسلام والمسيحية: كولونيا ١٩٨٣، و: موريس بورمانز: الشبل إلى الحوار المسيحي الإسلامي، فرانكفورت ١٩٨٥.
- (٢٩) ميشيل ليونج: «إن شاء الله...» باريس ١٩٨٦.
- (٣٠) هانز كينج: المسيحية والإسلام، مجلة للتبادل الحضاري، شتوتجارت ١٩٨٥، العدد ٣، ص ٣١١ وما يليها.
- (٣١) هانز كينج: جريدة العالم (دي فلت) بتاريخ ٦/٣/١٩٨٩، صفحة ١٣.